خواطر في الفن والنكبة

بقلم الدكتور عبد الرحمن البناني

اذا التفتنا الى ما يكتب في الفـــن في هذه الايام لاحظنا ان الجدل يدور حول مفاهيم المدارس الفنية المختلفة ، ورأينا الاهتمام ينصب على اساليب الفن ووسائله اكثر منه على النواحي العميقة فيه ، حتى اصبح الفنان الذي يستطيع الخروج بعيدا عن المنطق والمعقول ويحملنا معه الى عالمه الخاص بكل ما فيه من غموض وفردية هو الفنان المبدع ... ربما كانت الغرابة بحد ذاتها امرا يدل على قدرة في الابتكار ، ولكن هل تكفي بحد ذاتها ايضا دلالة على اصالة الفنان وعلى قدرته على الابداع السليم ؟

ليست المدارس التجريدية في الفن بغريبة عنا ، فلقد عاشت الفنون العربية ـ الاسلامية ـ حياتها تنسج على منوالها في معظم ما انتجته من اعمال ، ولكنها لم تستطع ان تعبر عن الانفعالات التي شعر بها الفنان ... انني أخال الفنان الذي يسعى وراء الجمالية بمعناها المتجرد المثالي يحبس شعوره داخل نفسه وينكب يعمل ، مبتكرا ولا شك ، على خلق صورة جميلة ، ولكنها بلا معنى وبلا ارتباط بالواقع ... ولعل الذي كان يحول دون قيام الفن بالدور الطليعي في النضال العربي يعود الى مثل هذه الاسباب . فنحن لا نجد في تاريخنا الطويل الحافل بالنضال والصراع فنا تعبيريا يستطيع ان يكون حافزا حضاريا للعمل . لقد كانت معظم الاعمال الفنية اعمالا شكلية مبنية على الزينة ومستندة الى الرفاهية والثراء اكثر منها اعمالا اصيلة ذات محتوى منبعث عن الادراك الوجداني للمشكلات التي تكتنف الفنان ، ذلك الادراك الذي يثير فيه الانفعالات الضرورية للتعبير تعبيرا ماديا ملموسا ... وحتى الشعراء كانوا في معظم محاولاتهم يمدحون

(١) بداية المأساة

الاثرياء طمعا بالعطاء فاذا لم يصلوهم قالوا فيهم ما حلا لهم من هجاء وتشهير ... حتى سيطرت على الشعر اقوال مثل : « أعذب الشعر أكذبه ... » لقد سيطرت على اتجاهاتنا الفنية على مر الزمن مفاهيم جامدة نمطية لا تكاد تحيد عن خطوطها الهندسية المرسومة والاشكال الصنمية للاشياء ، كأنها اخذت كليا بالمهارة في خلق متاهات أزلية لا نهاية لها من الخطوط والالوان وبكل ما في الصنعة من رشاقة ودقة . اننا لا شك نعجب بها ، ولكننا لا نتأثر بها ...

*

لم تكن هذه النزعة في الفنون نزعة عابرة بل اساسية عامة اعتمدها معظم الذين تصدوا للعمل الجمالي ، ليس في الفنون الشكلية فحسب ، بل في الكثير من الفنون الكتابية ايضا ، فالمقالات مثلا ، تبدو لي بتراكيبها وجملها المحددة وترديداتها الرتيبة اقرب الى المتاهات الهندسية منها الى العمل الفني المخلص . كان « الجمال » غاية يسعى اليها الفن ويبحث عنها ، وكان العامل الرئيسي الذي ادى بالتالي الى تجميده في قوالب ثابتة محددة بعيدة عن الحركة والتفاعل وعن التعبير الصادق والثورة المنطلقة . ولقد ادت هذه النظرة في مختلف العصور الفنية الى الابتعاد شيئا فشيئا عن الاشكال وحسن الاداء وفائدة العمل، والاقتراب شيئا فشيئا من الذاتية والانفلاقية والاشكال الحسابية المجردة باللون والخطوط . وبذلك اصبح الفنان منفصلا عن المجتمع وفقد حيويته وانقطع عن الناس ليطل عليهم كالطاووس مزهوا بذيله وبألوانه ومملوءا بالغيرة والحسد .

(٦) ستة عشر عاما

لعبت الديمقراطية وحرية الرأي دورا أساسيا في تحطيم ذلك الجمود وفي شق الطريق امام الفنان وافساح المجال له للتعبير عن نفسه ، عن مشاعره ، عن ارائه وأفكاره بكل حرية وبلا مواربة والتواء ، فتبدلت مفاهيم الفن من السعي وراء « الجمال » الى السعي وراء التعبير عن الشعور الانساني الصادق عن المشاركة الانسانية بكل مداها وعلى كل المستويات . لقد اصبح الفن بعد هذه الخطوة حرا من عبودية التحكم ، واكثر اصالة وصدقا واخلاقية مما كان عليه في اثوابه المنمقة القديمة ، لانه لم يعد يهتم بالنفاق بل سار مع الناس

يحس آلامهم ويصيبه ما يصيبهم ويعيش حياتهم بكل ما فيها من عنف وزخم وعمق ...

*

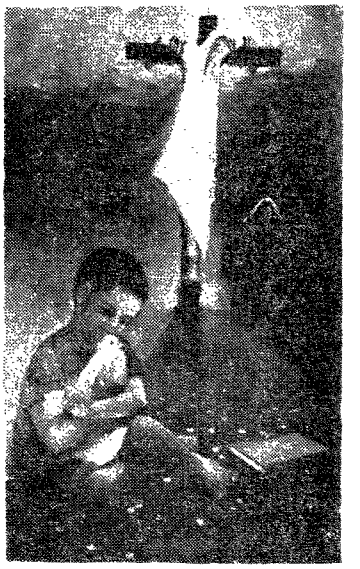

(٧) فلسطين على الصليب

علينا ان ننظر الى المشكلة الفنية المعاصرة من هذه الزاوية ، فلقد تحطمت الابراج العاجية ونزل منها الفنان الى ساحة الحياة يحرثها بقلمه وريشته ، كالعامل ، كالفلاح ، له رسالة وعليه مسؤولية العطاء المفيد ...

لم تكن ازاء النكبة في مستواها ، لا ادبيا ولا فنيا ولا سياسيا ... حتى أكاد أقول ولا قوميا ... هنالك اسباب عديدة بلا شك حالت دون تمكننا من التحكم في مصيرنا الثقافي والحضاري بحيث يأتي منسجما مع مشاكلنا وقضايانا ومتهيئا لملاقاتها بالمستوى الذي تظهر فيه ... فبالرغم من ان قضية فلسطين نشأت خلال فترة من الزمن ، فهي لم تكن بالنسبة الينا الا قضية من القضايا تطورت في مرحلة من البلبلة والفوضى فلم تحظ بأكثر من الخطابة والمظاهرات الموسمية ...

لقد منحت النكبة هذه القضية قوة دفعت بها الى حدود المصير العربي فهزت نفوسنا من جذورها وأيقظتنا من غفلتنا وفجرت الثورات في شتى الميادين بما فيها الفنية والثقافية ، ورفعتها الى المستوى الذي يتحتم عليها ان تظل منه ليس على القضية الفلسطينية فحسب ، بل على كل القضايا العربية ، بوعي وبصيرة نافذة . ومع ذلك فلا نزال نتلمس خطانا بشيء من القلق ، والخوف والتردد والحيرة ، نبحث عن قيم جديدة ومفاهيم يستطيع الجيل الجديد - ان يبني بها اسس نضاله في سبيل البقاء والتطور ، في سبيل الحياة ... نحن نواجه اليوم تحديا لتجربتنا التاريخية ، ولحضارتنا وامكاناتنا وحقنا في الحياة ... لا مهرب لنا من مواجهة ذلك ، رغم الحيرة ورغم القلق...

لقد صدمتنا النكبة صدمة اثارت في نفوسنا شعورا بالخيبة وبالاهانة ... عشنا بعدها فترة جيلا ضائعا مات ماضيه ولم يكن له مستقبل واضح ... بلا امل ولا هدف ولا نقطة للانطلاق ، كانت بالنسبة الينا مرحلة يأس بهيم وركود قاتم ...

*

الفنان الاصيل هو الذي يعكس أجواء بيئته ومشاعر شعبه واحساساته ... ولعل هذه الميزة هي بالنسبة للفنان الفلسطيني اسماعيل شموط اكثر الدلائل صحة على اصالته وجديته . فالمواضيع التي تناولها ليست مهمة بحد ذاتها ، ولكنها مهمة من حيث انها اطارات تتضمن عناصر التفاعل الفني بين الفنان وبيئته ، بكل ما في ذلك من الثورية والتأثر ... ان الذي يلفت النظر في اعماله هو ذلك التجاوب الصادق بين المراحل التي مرت بها نفسية مجتمعنا والمراحل التي مر بها الفنان بما في ذلك من ضياع وحيرة وذهول ... ان اشخاصه تصرخ في العراء لا تجد من يسمع نداءها ... انها تهز قبضتها في فراغ مهيب فتظل قبضة متأهبة تتأرجح بين التعبير العنيف عن الغضب والثورة في وجه لا ندري ان كان وجه العدو ام وجه الامة السادرة اللاهية ام وجه القدر ... ولكنها على كل حال قبضة طليعة تفجرت في نفوسها أبعاد النكبة فوعتها وأدركت الفراغ السياسي والقومي الذي خلقته تلك اللامبالاة والمصالح الآنية المتضاربة ...

(٥) هنا كان أبي ..!

لقد عكست اعمال شموط الباكرة حالة زملائه من اللاجئين ، ولكنه فعل ذلك على نحو نفذ به الى ما وراء الظواهر العرضية للقضية ... انه عاش النكبة من الداخل ، وتأملها من الداخل فلم يرتح لتسجيل حركات النزوح والانتقال تسجيلا آليا قصصيا فحسب ، بل اختمرت في نفسه كل العوامل والمشاهد ، كل الدماء والاشلاء ، كل الاسلاك الشائكة والدموع والجروح والحطام فجمع في لوحاته - في مكان واحد وفي دفعة واحدة (١ و ٢) كل المراحل التي مرت بها المأساة فصهر في عمله ماضيها وحاضرها ومستقبلها - اللاجئون في سيرهم اللامتناهي يبني بهم دنيا من الالم والغيظ فيرتب خطاهم عن قصد في بناء محمل بالقيم والمعاني ... ومع ذلك الى أين ؟!.. كأن الفنان يستنكر مسيرتهم وينكر عليهم ذلك النزوح المأتمي المهيب ... اننا نلاحظ التيه في لوحاته الباكرة ، يأس يحمل أثقال الماضي ... مأساة الحاضر ... غموض الغد في حركة دائمة تكاد تخرج بالقضية من نطاقها المحلي الخاص الى واقعها الانساني معيدا الى الاذهان قصص الطوفان والكوارث الكبرى التي اصبحت تراثا نسانيا لا زمان له ولا مكان ...

صدر حديثا :

تأليف :
الدكتور عبد الجبار الجومرد

داهية العرب

ابو جعفر المنصور
مؤسسة الدولة العباسية

عن دار الطليعة - بيروت ص. ب ١٨١٣

لم تن النكبة حادثة تاريخية عابرة بل حدثا انسانيا هائلا ... نموذجا حيا لما يحيط بالامة العربية من اخطار تضافرت عليها قوى الشر فجعلت نضالها نضالا انسانيا ـ نضال الخير ضد الشر ... وبذلك تحدت زمنها واصبحت بطبيعة حية ابدا فعالة ابدا بالرغم من الفترة التي كادت تتحول فيها الى صورة للاستسلام والخمول كأن الانسانية قد فقدت املها وايمانها بالخير وبالحق ... كما يبدو ذلك بوضوح في اعمال الفنان الوسطى ـ انها مرحلة العجز والحزن والانهزام ... هذا كهل يدفن شبابه بيديه في موقد (٣) ، وهناك طفلان لا حاجة للحياة بهما ولا لهما بها حاجة (٤) ، وهنا طفل لا يبدو ان احدا يريده ولا يبدو انه يعرف ان للاطفال آما او أبا او اقارب ، قابع امام كرسيه الكسيح لا يدري كيف أتى الى هنا ، بلا حياة ، بلا حركة (٥) ، وفي باب احد الملاجىء عائلة جامدة لا يربط بين افرادها سوى الخوف والترقب والانتظار (٦) ولقد سارت هذه المعاني بالفنان الى خارج واقعه ، كأنه فقد كل أمل في هذا الواقع ، فعمد الى افراغ كل ما في نفسه من تضارب وتفاعل في لوحة رمزية شبه سيريالية جمع فيها مفاهيم مختلفة وصورا شتى ، صاهرا كل معاني المأساة ، كل ابعاد النكبة في مزيج من اللعنة التاريخية الازلية ، والأمل الصغير .. من الايمان بالانسان ، بالمحبة ، بالبقاء ، بالغد (٧) .

صورة الفنان بريشته

*

ان اسماعيل شموط وحيد في ميدان عمله .. فنحن لا نجد بين الشعراء والادباء والفنانين الذين عاصروا النكبة من تناولها بالعمل والاخلاص الذي نتوقعه في الفنان الاصيل ... لقد كان الفنانون عندنا من اتباع تلك المدرسة التي تؤمن بالفن للفن فحسب ، كانوا جماليين يبحثون عن الهرب من الواقع ، الهرب من الحقيقة ، الهرب من الانسانية . فسدوا انوفهم حتى لا تزكمها رائحة ما يحيط بهم ، وأغمضوا عيونهم حتى لا تبصر الدماء والاشلاء ... سوف يندثرون حتما في حمأة النضال الثوري الخلاق الذي نخوضه حاليا ...

اما صاحبنا فلقد تعلم الفن في ظلال النكبة وبها فلا يستطيع ابدا الافلات منها ، ولا يجد لفنه معنى خارج نطاقها ، لذلك نراه يعيش الان على هامش الفن بما يقوم به من اعمال يدرك هو قبل اي انسان اخر ، انها خارج مجرى حياته الروحية ... ان ارتباط النكبة بالتربية الفنية عند شموط حقيقة ذات اهمية بالغة ليس من حيث المواضيع التي يتطرق اليها بل ايضا من حيث الاسلوب الذي يلجأ اليه في التعبير عن انفعالاته ... فهو يبني عمله على اسس شكلية لا تزال تحافظ على الكثير من مدرسيتها ، كأن هذه المواضيع قد فرضت عليه التزام التعبير الواقعي حتى يتسنى له التعاطي مع غيره من الناس بلغة مفهومة ، لذلك لم تجرف الفنان تلك التيارات البورجوازية الكمالية التي جرفت معظم الفنانين الشبان بمدارسها المختلفة ، فشموط بالنسبة للفن الفلسطيني ، فنان رائد ، معبر ، صاحب رسالة ، ابن قضية تبحث لها عن اسلوب تخلد به وعن وسيلة تنتقل بها من جيل الى جيل ومن عهد الى عهد ، لا يمكن لنا ، بل لا يحق لنا ان نتوقع منه التجرد او ان نحبسه في سجن المحاولات التجريدية كأننا نفرض عليه ان ينسى القضية وينسى ذاته فيصبح تابع مدرسة لا رائد نضال ... ان تجريد القضية فنيا ليس الا محاولة لجعلها احدى القضايا العابرة المبتذلة التي يستطيع الفنان ان يستمد منها انماطا جمالية تقف في منتصف الطريق بين البصر والبصيرة ، بين العين والقلب ... وهي في تجريدها لا انفعال فيها ولا اثارة ... ان تجريد القضية فنيا ولو كان تجريدا في الاسلوب فحسب سوف يؤدي حتما الى قتلها واندثارها كقوة دافعة خلاقة موجهة ... فلذلك لا نستطيع ان نتوقع منه الانخراط في متاهات الفن الحديث التي قضت على معظم القوى الفنية الصاعدة ... وبعد فلسنا نحن بحاجة الى التجربة الجديدة في الجمالية لاننا قد رأيناها تعود عن طريق المدرسة التكعيبية والرسوم الهندسية الحديثة الى الجمالية كما عرفها الفن العربي الاسلامي التليد ، فنحن لا نبحث اليوم عن وسائل للنزق بل عن حوافز للحياة . ان الاسلوب الواقعي يعبر عن المواضيع الانسانية الواقعية اكثر مما يعبر عنها الاسلوب التجريدي ... والقضية الفلسطينية قضية انسانية في الدرجة الاولى ، وليست قضية فلسفية او عقائدية ... وأبناؤها ما زالوا يفتقرون الى التربية الفنية الحديثة التي قد تسمح لهم بقراءة اللوحات و « تفسير احلامها »

صدر في منشورات دار الكاتب العربي

اكتشاف جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

تأليف جاكلين بيرين

نقله الى العربية : قدري قلعجي

كتاب فذ يعرض آثار الرحالة الغربيين الذين حاولوا اكتشاف جزيرة العرب خلال القرون الخمسة الاخيرة ، ملخصا قصصهم الشيقة ، مسجلا ما قدموه من خدمات في حقل المعرفة البشرية واكتشاف المناطق المجهولة والاقوام التي تقطنها ، متنقلا معهم في المكان والزمان ، بحيث جاء هذا السفر الممتع مرجعا فريدا في الجغرافية البشرية وتاريخا لحقبة مجهولة من تاريخ جزيرة العرب . ويزيد في قيمة الكتاب المقدمة التي وضعها للترجمة العربية العلامة الشيخ حمد الجاسر ومساهمته في ضبط اعلامه وكتابة هوامشه

الثمن ٦٥٠ ق.ل

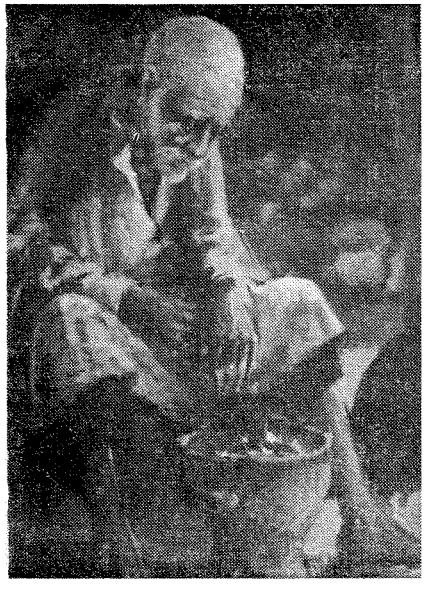

(٣) علكة بعد منتصف الليل (٢) سنعود (٥) ذكريات وواقع ونار ..

فتساعدهم على سبر اغوارها الغامضة ... ولذلك عمد الفنان بوعيه وبارادته الى تطوير اسلوبه الواقعي تطويرا محافظا نوعا ما ، حتى يصل به الى جمهوره بوضوح وتفاهم صادق صريح ، وهذه لعمري هي في الحقيقة غاية كل فنان وهدفه الاول وآس عمله .

*

منذ فترة والفنان شموط يحاول الخروج بالنكبة من ركودها ... من يأسها ... من الحالة المستحيلة التي هي فيها ... من الخوف... من الدمار ... فراح في لوحته الكبيرة « ربيع فلسطين » (٨) يغني انشودة الفردوس المفقود ، أرض السلام والمحبة ... والعطاء ... من هنا يجب ان تبدأ المرحلة القادمة ، مرحلة البناء ، مرحلة النهوض والسعي ، مرحلة الخلاص ...

ويتراءى لي ان الوقت قد آزف ، وان ألنشاط قد دب فيالقضية من جديد ، فهل يواكب الفنان الذي عاش نكبته في مراحلها المختلفة هذه المرحلة الجديدة ؟ اننا لا نشك في الامكانات وفي الظروف ، وان كنا نعتقد ان فترة من التفاعل والتحضير لا بد ان تمر قبل ان يرتفع حداء الفنان من جديد ...

عبد الرحمن اللبان

في الاسواق

شعراء من لبنان

السيد علي ابراهيم

ايليا ابو ماضي ـ الشاعر القروي ـ وديع عقل ـ امين نخلة ـ الشيخ عبد الحسين صادق ـ بشارة الخوري ـ فوزي معلوف ـ الياس ابو شبكة ـ الشيخ محمد محمود المشفري ـ ميشال ابو شهلا ـ الشيخ ابراهيم يحيى ـ خليل مطران ـ الامير امين ناصر الدين ـ الشيخ علي مهدي شمس الدين ـ الشيخ محمد حسين شمس الدين ـ الشيخ ناصيف اليازجي ـ رشيد ايوب ـ شبلي ملاط ـ الياس فرحات ـ شفيق معلوف .

منشورات مكتبة منيمنة ـ بيروت ص.ب ٢٢٩٦